﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى
وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

صدق الله العلي العظيم

سورة الاسراء – الآية (٨٥)

الإهـــداء

- للبعيدين جداً ...
- للذين لا تصلهم كلماتنا ولا أصواتنا ...
- للذين غادرونا دون ترتيب ...
- ودون موعد مُسبق ...
- للذين لن يعودوا أبداً ...
- طبتم في فردوس الرحمن نعيماً ...

إلى الأحرار ...

شهداء العراق ...

أهدي لهم ثمرت جهدي

شكر وأمتنان

في مثل هذه اللحظات يتوقف اليراع ليفكر قبل أن تخط الحروف ليجمعها في كلمات ... تتبعثر الأحرف وعبثاً أن تحاول تجميعها في سطور .

سطوراً كثيرة تمر في الخيال ولا يبقى لنا في نهاية المطاف إلا قليلاً من الذكريات وصور تجمعنا برفات كانوا إلى جانبنا ... فواجب علينا شكرهم ووداعهم ونحن نخطوا خطواتنا الأولى في غمار الحياة ...

ونخص بالجزيل الشكر والعرفان إلى كل من أشعل شمعة في دروب عملنا ...

وإلى من وقف على المنابر وأعطى من حصيلة فكره لينير دربنا إلى الأساتذة الكرام في كلية الآداب/ قسم الآثار ونتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ ولاء صادق الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث فجزاه الله عنا خير فله منا كل التقدير والاحترام ...

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
الآية القرآنية	أ
الاهداء	ب
كلمة شكر	ج
المحتويات	د
المقدمة	١ – ٢
الفصل الأول	
المبحث الأول – تاريخ العصر البابلي القديم	٣ – ٩
المبحث الثاني – الاقتصاد في العصر البابلي القديم	١٠ – ٢٣
الفصل الثاني – دراسة النصوص	
الملاحق	
الجداول	
الخاتمة	٢٤
المصادر	٢٥ – ٢٦

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة القادسية / كلية الآداب
قسم الآثار

دراسة نصوص مسمارية من العصر البابلي القديم

بحث تقدم به الطالب

مشتاق طالب شايل

بحث مقدم إلى مجلس كلية الآداب / قسم الآثار كجزء من
متطلبات نيل درجة بكالوريوس في الآثار

بإشراف

م . م . ولاء صادق

١٤٣٨ هـ

٢٠١٧ م

المقدمة

بلاد بابل أو البابلية أو بابل تعني بالأكّدية (بوابة الإله) كان الفرس يطلقون عليها بابروش دولة بلاد ما بين النهرين القديمة. كانت تعرف قديما ببلاد سومر وبلاد سومر كانت تقع بين نهري دجلة والفرات جنوب بغداد بالعراق. فظهرت الحضارة البابلية ما بين القرنين ١٨ق.م. و٦ ق.م. مركز هذا الإقليم هو مدينة بابل والتي مرّ عليها خلال فترات وجودها العديد من الشعوب والحكام. وكانت تقوم على الزراعة وليس الصناعة. وبابل دولة أسسها حمورابي عام ١٧٦٣ق.م. وهزم آشور عام ١٧٦٠ ق.م، وأصدر قانونه (شريعة حمورابي) وفي عام ١٦٠٣ق.م. استولى ملك الحيثيين مارسيليس علي بابل واستولى الآشوريون عليها عام ١٢٤٠ ق.م. بمعاونة العلاميين. وظهر نبوخدنصر كملك لبابل (١٢٤٥ق.م.- ١١٠٤ ق.م.) ودخلها الكلدانيون عام ٧٢١ ق.م.(ثم دمر الآشوريون مدينة بابل عام ٦٨٩ ق.م. إلا أن البابليين قاموا بثورة ضد حكامهم الآشوريين عام ٦٥٢ ق.م. وقاموا بغزو آشور عام ٦١٢ ق.م. واستولى نبوخدنصر الثاني على أورشليم عام ٥٨٧ ق.م. وسبي اليهود عام ٥٨٦ ق.م. إلى بابل. وهزم الفينيقيين عام ٥٨٥ ق.م. وبني حدائق بابل المعلقة. ثم استولى الإمبراطور الفارسي قورش علي بابل عام٥٣٨ ق.م. في زمن الملك الكلداني بلشاصر وضمها لإمبراطوريته.

أعظم ملوكها حمورابي (توفي عام ١٧٥٠ ق.م.) والذي اشتهر بمجموعة القوانين المعروفة باسمه. وبعد حمورابي بفترة يسيرة أفل نجم هذه الأمبراطورية لتعود وتزدهر من جديد وتتسع رقعتها فتشمل فلسطين وتبلغ الحدود المصرية وذلك في الفترة التي سيطر خلالها الكلدانيون على بابل ابتداء من عام ٦٢٥ قبل الميلاد. ويطلق على الإمبراطورية البابلية في هذه المرحلة اسم " الإمبراطورية البابلية الثانية". ويعتبر نبوخذ نصر أعظم ملوك بابل (٦٠٥-٥٦٢ ق.م.) في عهدها الجديد هذا، وكانت انذاك مطوقة بأسوار ضخمة ذات أبواب عريضة. وما هي إلا فترة قصيرة حتى سقطت بابل في يد كورش الثاني ملك الفرس (عام ٥٣٩ق.م.). والحضارة البابلية من أعظم الحضارات القديمة. وقد حققت إنجازات ذات شأن في الفلك والرياضيات والطب والموسيقى.

وتطلبت الزارعة في البابلية، عملاً مضنياً وتنظيماً دقيقاً، ولكنها كانت تثمر غلالاً وفرة، فمن الضروري شق القنوات لإيصال المياه إلى الحقول، وكانت أعمال القنوات الرئيسة مسؤولية الدولة. أما المزارعون فيتولون القنوات الصغيرة الثانوية والعناية بها. المألوف أن تبذر المحاصيل في أواخر الخريف وتحصد في نهاية الربيع. وكانت الغلال تحصد بالمناجل. ويبدو أن البابليين كانوا يستخدمون النورج للدراس، ثم يقومون بعملية التذرية، وبعدها بتخزين المحصول في أهراء قريبة من الحقول. أما المحاصيل فكانت من القمح والشعير، والعدس، والحمص، والكتان، والسمسم، والبازلياء والشوفان والدّخْن والجلّبان.

ولأهمية دراسة هذا الموضوع قسمنا هذا البحث إلى مبحثين جاء المبحث الأول بعنوان تاريخ العصر البابلي القديم ، والمبحث الثاني الحياة الاقتصادية في العصر البابلي القديم ومن ثم خاتمة البحث وقائمة بأهم مصادر البحث والله ولي التوفيق .

المبحث الأول

العصر البابلي القديم

بعد سقوط سلالة أور الثالثة فقدت البلاد وحدتها السياسية وعادت دويلات المدن الى الظهور في من أيسن ولارسا والوركاء وبابل ،وعرفت هذه الفترة من تاريخ العراق بدور (ايسن ــ لارسا)الذي يكون القسم الاول من العصر البابلي القديم.[١]

وبعد ان كان النزاع على الاستئثار بالسلطة على أشده بين الدويلات واستمر لاكثر من قرنين حتى انتهى بانتصار بابل في زمن ملكها السادس حمورابي عرف هذا العهد بدويلات السلالات ومنها (أيسن) ١٠١٧ــ ١٧٩٤ق.م وتعرف اليوم بايشان البحريات ويبعد بنحو عشرين كيلو مترا من جنوب عفك وعدد ملوك هذه السلالة خمسة عشر ملكاً حكموا زهاء (٢٢٦) سنة ، وقد عرف ملوك هذه السلالة بحبهم للتعمير وتنمية الحضارة القديمة ، ووجد أجر مطبوع بأسماء بعضهم في الابنية الكبيرة في مدينة أور وغيره من المدن المجاورة لايسن واولهم :اشبي إيرا (٢٠١٧ــ ١٩٨٥ق.م)وكان في بداية الأمر أميراً على مدينة أيسن وخاضاً لابي سن ملك أور ولما اشتدت هجمات الساميين الغربيين ودخلت موجات منهم الى المدينة لم يقم (ابي سن) على صدهم وانشغاله بمحاربة العلاميين فأنتهز اشبي ايرا الفرصة واستقل في ايسن واسس فيها سلالة حاكمة .[٢]

كما اشتهر ملكها الخامس (لبت عشتار ١٩٣٤ــ ١٩٢٤ق.م)بتقنين القوانين ودونها على ألواح من الطين ،أذ سبقت هذه القوانين شريعة حمورابي بأكثر من قرن ونصف القرن ، وورد اسم لبت عشتار في الاخبار المدونة بكونه رئيس كهنة معبد (ننا أو ننار) كما حكم بعد لبت عشتار (أورننورتا واسمه سومري يدل على النفوذ السومري في مقاطعات الجنوب من العراق القديم ،وفي هذه الاثناء كثرت النزاعات بي (لارسا) و(ايسن)فتولى الحكم (ايراميتي) حيث تنازل عن العرش لتابعه البستاني فمات بعد ذلك وخلف البستاني (انليل باني الحكم بعد أن أظهر مقدرته على الادارة والحكم زهاء (٢٤)

---

[١] جورج رو،١٩٨٦،العراق القديم ، ترجمة حسين علوان حسين، بغداد، ص٤٥ .

[٢] هاري ساكز ،١٩٧٩،عظمة بابل ،ترجمة عامر سليمان ،الموصل. ص٤٦ .

عاماً ثم تتابع الملوك وكانت سلطتهم محلية تشمل ايسن واطرافها ، وفي عهد أخر الملوك (دمق ايشلو) سقطت المدينة بيد ملك لارسا (ريم سن) ابن (كدر مايك)العيلامي وانتهى عهد سلالة ايسن بنحو (١٧٩٤ق.م .([١]

أما سلالة لارسا (٢٠٢٥ــ ١٧٦٣ق.م) وتعرف اطلالها اليوم بأسم سنكرة وهي على بعد سبعين كيلومتراً من شمال مدينة الناصرية وعدد ملوكها أربعة عشر ملكاً حكموا زهاء(٢٦٤)سنة اولهم (نبلانم٢٠٢٥ــ ٢٠٥ق.م) وهو من الموالين للعيلاميين ،وكان هناك نزاع مستمر بين ملوك هذه السلالة وملوك سلالة ايسن والكفة الراجحة كانت بجانب ايسن حتى تدخل الملك العيلامي (كدرمايك) فإستولى على المقاطعة الشرقية وفتح لارسا ونحى عنها ملكها (صلي أداد) وعين بدلا نه ابنه (وردسن)واشتهر هذا الملك بتجديد المعابد وصيانتها وقد كتب اسمه بالسومرية بعد أن حكم عشر سنوات ،تبعه أخوه (ريم سن ١٨٢٢ــ١٧٦٣ق.م) [٢] وكان فاتحاً عظيماً قويا استطاع ان يوحد قسماً كبيراً من جنوب العراق ، وعلى الرغم من ان (كدرمايك عيلامي إلا ان اسمي ولديه ساميان ،مما يدل على استيطان المنطقة الشمالية من العراق ، وكانت في مدينة اوروك سلالة مستقلة واشهر ملوكها (سن كاشد)و(سن كميل)، وامتدت هذه المدينة الى لارسا ،وفي عهد (ريم سن)استر النزاع أقصى (دمق ايشلو) وجدد المعابد . وفي أواخر حكمه ظهر الملك حمورابي من سلالة بابل الاولى فقضى حمورابي على لارسا وملكها . [٣]

كما ووجت عدة مدن مستقلة في زمن لارسا ومنها مدينة أشنونا اذ تقع في مدينة ديالى وتعرف بتل اسمر ولم تدخل هذه المنطقة تحت سلطة الملك (ريم سن وحكم فيها عدة امراء مستقلين ومنهم (ابق أداد)الثاني في نحو ١٨٣٠ ق.م و(دادوشا في نحو ١٨٠٠ق.م) و(اباببتل)الثاني . [٤]

---

[١] دانيال تي بوتس ،٢٠٠٦،حضارة وادي الرافدين الاسس المادية، ترجمة كاظم سعد الدين ،بغداد ، ص٦٧ .

[٢] كريم عزيز حسن الدليمي ،٢٠٠٤، الزراعة في العراق القديم منذ عصر فجر السلالات حتى نهاية العصر البابلي القديم ٣٠٠٠-١٥٩٥ ق.م، اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب جامعة بغداد ، ص٧٨ .

[٣] هاري ساكز ،١٩٧٩،عظمة بابل ،مصدر سابق. ص٤٦ .

[٤] دانيال تي بوتس ،٢٠٠٦،حضارة وادي الرافدين الاسس المادية، ترجمة كاظم سعد الدين ،بغداد ، ص٨٧ .

ومن مدنها المهمة والتابعة لها (خفاجي وتل اجرب واشجالي) ( ) .وهنالك مدينة اشور التي كان امرائها يتحينون الفرصة للنهوض ببلادهم وابعادها عن النفوذ الجنوبي ، وقد نالت استقلالها قبل ان تقوى بابل في عهد حمورابي ومن ملوكها (ايلوشوما) الذي حكم في ١٩٢٠ق.م وقد عاصر (سموبوم)مؤسس بابل الاولى ،كما اشتهر الملك الاشوري (شمشي أداد) ١٨١٥ــ ١٧٨٢ق.م بفتوحاته التي وصلت اواسط العراق القديم ، اذ ظهر في نهاية حكمه الملك حمورابي الذي قضى على استقلال اشور ..[١]

وتمتد فترتها من ١٨٩٤ــ ١٥٩٤ق.م وعدد ملوكها أحد عشر ملكا ً وتعرف بالسلالة الامورية ، وقد بلغت حضارة العراق في هذه الفترة أوج عظمتها وازدهرت ، وعمت اللغة البابلية بلاد الشرق الادنى بعد استلام الحكم من قبل ملكها حمورابي الذي وحد القوانين ، ومن أول ملوكها (سموأبوم ١٨٩٤ــ١٨٨١ق.م) [٢] اسس الملك سلالته في زمن سلالتا لارسا وايسن المتنازعتان على السلطة ، وكانت البلاد تزخر بالموجات السامية الغربية واتخذ الملك سمو مدينة بابل عاصمة له يقطنها الكثير من الساميين الغربيين وبقايا الاكديين الساميين الذين كانت عاصمتهم اكد والقريبة من منطقة بابل .لقد ثبت سمو حدود منطقة بابل وسور المدينة وبنى فيها المعابد وضم الى حكمه كيش وسبار ومدنا أكدية أخرى ،وبعد وفاته تبعه ملوك ضعفاء حتى ظهور حمورابي في (١٧٩٢ــ١٧٥٠ق.م)وبعد تسلمه الحكم كان في البلاد قوى مختلفة تنازع السلطة فيما بينها منها مملكة لارسا وملكها ريم سن الذي استطاع في السنة السابعة من حكم حمورابي ان يفتح ايسن وضمها الى حكمه ، أما القسم الشرقي من العراق فقد كان تحت السلطة العيلامية ، والقسم الشمالي تحت سلطة (شمشي أداد ملك أشور.(

لقد حارب حمورابي المدن المجاورة لمدينة بابل وقام حكمه على اساس الاصلاحات الحضارية والثقافة البابلية ،ومن أهم اعماله تقنية القوانين وسنها في شريعة واحدة دونت على مسلة م حجر الديوريت الاسود التي جمعت بدورها من تدوينها المسبق على الواح

---

[١] صموئيل نوح كريمر ،١٩٨٣،هنا بدا التاريخ –حول الاصالة في تاريخ وادي الرافدين ،ترجمة ناجيه المراني، بغداد ، ص٧٨ .

[٢]اندري باور ،١٩٧،سومر فنونها وحضارتها ، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، بغداد ، ص٦٧ .

الفخار، وبعد وفاته تولى الحكم خمسة ملوك (سموايلونا ١٧٤٩ــ ١٧١٢ق.م) الذي عرف بحفر الاقنية والترع وصد غزوات الكشيين[١] ، فخلف ابنه (ابي ايشو ١٧١١ــ ١٦٨٤ق.م) والذي خلف بدوره ابنه في الحكم (امي ديتانا ١٦٨٣ــ ١٦٤٧ق.م) والذي قمع عدة فتن ومنها فتن امراء المدن الجنوبية ، فخلف ابنه (أمي صدوفا ١٦٤٦ ــ ١٦٢٦ ق.م) الذي صد الغزو الجنوبي وسور المدينة من ذلك ، إلا انه خلف ابنه في الحكم (سمسو ديتانا ١٦٢٥ ــ ١٥٩٤ ق.م) وهو الملك الحادي عشر من سلالة بابل الاولى ، لقد عمل اوائل الملوك البابليين في المحافظة على المملكة وشغلوا بالحروب الخارجية للمحافظة على ممتلكاتهم خارج العراق وكذلك في صد الطامعين من الشعوب المجاورة .[٢]

بعدها هاجم الحيثيون بقيادة ملكهم مرشي الاول على بابل وفتحوا العاصمة ودمروها.حيث نهبوا بابل ودمروها واخذوا تمثال الاله مردوخ الى بلاده ،اذ انسحب الحيثيون من بابل الاولى التي دامت زهاء ١٥٠ عاماً ،ولعل الكيشيين جاؤا الى الراق في حدود هذا الزمن وهم من طردوا الحيثيين ، بعد ان اسسوا سلالتهم الجديدة في بابل وعرفت بسلالة بابل الثالثة.

وفي جانب الاشكال الفخارية النحتية من بابل القديمة وصف (زهير صاحب) الفخار بأنه واحداً من ابرز الانجازات التشكيلية التي اوجدها الإنسان الى جانب الرسم والنحت منذ اقدم العصور ،بوصفه ظاهرة فنية تحتاج الى معرفة عملية بالتقنيات والكيميائية التابعة للمواد المستعملة وبشكل اكثر تعقيدا من انتاج الرسوم أو المنحوتات فظل رهين التقدم التقني والتطور التراكمي الذي مر به الفخار عبر المراحل الزمنية المتتالية.ومن بعد نشأته الاولى حين عرف الإنسان امكانية حرق الاطيان فحقق بها تقدماً[٣] سريعاً ، إلا ان هذه العملية لم تكن تدريجية بل كانت بصورة تدريجية واعتمدت منطق التجريب حيث الفكر عرف الحرارة وتصلب الاجسام الطينية فنقلت الى البحث

---

[١] طه باقر وفاضل عبد الواحد علي،١٩٨٠،١٩٨٠،تاريخ العراق القديم ،الجزء الأول، بغداد ، ص٥٦ .

[٢] جورج رو،١٩٨٦،العراق القديم ، ترجمة حسين علوان حسين، بغداد، ص٧٨ .

[٣] دانيال تي بوتس ،٢٠٠٦،حضارة وادي الرافدين الاسس المادية، ترجمة كاظم سعد الدين ،بغداد ، ص٥٤ .

والتحري لتتطور بشكل ظاهرة تلبي الغايات والاحتياجات النفعية المرتبطة بنشاطات اقتصادية وتنوع حياتي ارتبط بالروحي والاجتماعي انتقل الى تصوير المشاهد الفنية بصدد نقل الموضوعات وماهية المضامين في دويلات المدن (اريدو ولكش ولارسا .([1]

ان الاشكال الفخارية النحتية هي منحوتات فخارية يتم الحصول عليها بعد العديد من الخطوات في المادة والخامة والتعبير والتشكيل "فالشكل ملازم بصورة مباشرة للمادة بوصفه ماهيتها الحقيقية وقوتها المشكلة ،فالشكل هو العنصر الذي يجعل من العمل الفني جسداً منتظماً يحمل مضموناً يتبنى شفرة صورية وانفعالاً وافكار خاصة والتعبير يكشف عن قيمة العمل بوصفه الظاهرة الحضارية ذات الدلالة "ان المضمون والمادة والشكل والتعبير يعتمد كل منهم على الاخر فليس لاحدهم وجود عن الاخر.

تبرز الاشكال الفخارية النحتية في العصر البابلي القديم بقيمتها الفنية والتشكيلية عبر مختلف النماذج التي عثر غليها في بلاد الرافدين وتشير الى نتاج صنع بالايدي والقالب في حين كان للمهارة التقنية والفنية الدور العالي لصناعتها المتمثلة بالتفاصيل الدقيقة لعضلات الاجسام وطيات الملابس وبروز الاشكال عن الارضيات والنحت يطلق عليه أحياناً (النحت الناتىء أو البارز) ومنه موضوعات متنوعة واقعية وخيالية لالهة مقرنة وتركيبات بشرية وحيوانية وصراع الابطال والحيوانات وفق فكرة حملها لشفرات شكلية ورمزية ومضامينية كنائية واستبدالية ومكثفة تحمل رسالتها وابلاغها لغير عصرها .[2]

ومن الأمور المعروفة للجميع أن أولى الشرائع المدّونة في العالم قد ظهرت في العراق القديم، وهناك من الإشارات ما يدل بشكل قاطع على ظهور القوانين المدونة في عصور فجر السلالات. إن الشرائع في العراق القديم لم تكن أولى الجهود البشرية في تنظيم الحياة الاجتماعية فحسب بل إنها دوّنت بأسلوب علمي وبلغة قانونية دقيقة. إنها قوانين بهيئة مواد متسلسلة مقتصرة على الشؤون المدنية لا تتعرض للعبادات في شيء.[3]

---

[1] جورج رو،١٩٨٦،العراق القديم ، مصدر سابق ، ص٧٨ .

[2] طه باقر وفاضل عبد الواحد علي،١٩٨٠،١٩٨٠،تاريخ العراق القديم ،الجزء الأول، بغداد ، ص٦٤ .

[3] هاري ساكز ،١٩٧٩،عظمة بابل ،مصدر سابق. ص٥٢ .

وكان من تمسّك سكان العراق الأقدمين باحترام القانون والنظام أن تصوروا الكون كله على هيئة مملكة تحكمها الآلهة يتجلى فيها مبدأ الطاعة وبخاصة طاعة القوانين والسير بموجب أنظمة المجتمع وأعرافه الشفهية والمدونة. وبلغ من تقديرهم لفضيلة الطاعة أنهم تخيّلوا ظهور عهد ذهبي بين البشر في يوم ما تسود فيه الطاعة والنظام وسيادة القانون .[١]

ومن ثمرات الحضارة الناضجة نشوء الصناعات الأولى وكذلك التجارة وبخاصة التجارة الخارجية لجلب المواد الخام التي اعتمدت عليها تلك الصناعات. ومن البديهي أن يصاحب كل ذلك تقدم العلوم والآداب والفلسفة .

وفي العراق القديم بدأت أولى المحاولات الفلسفية الجريئة الخاصة بأصل الكون والوجود والأساس في مكونات المادة. ومن المؤكد أن السومريين قد سبقوا الفلاسفة الإغريق بقولهم بمبدأ العناصر الأربعة الأولية التي عدت أصل جميع الأشياء .[٢]

ومن البديهي أن يولي العراقيون القدماء أيضا الأدب الكثير من اهتمامهم. لقد كان شأنه شأن الآداب العالمية القديمة الأخرى يشرك الآلهة في الملاحم والقصص أو الأساطير. أما الشعر السومري والبابلي فقد كان يخضع لفن خاص من النظم والتأليف فهو موزون ولكنه غير مقفى. إنه من النوع المعروف في الوقت الحاضر بالشعر المرسل. وما خلفه لنا العراقيون القدماء من الروائع الأدبية أكثر من أن تحصى، ربما أهمها (ملحمة جلجامش) و (قصة الخليقة) و (قصة الطوفان) وعدد كبير جدا من الأساطير .[٣]

وفي باب العلوم الصرفة كالرياضيات مثلا عرف البابليون أسسا مهمة في خواص الأعداد وكذلك في العمليات والطرق والمعادلات الجبرية الأساسية. من ذلك مثلا معادلات الدرجة الأولى بأنواعها المختلفة فضلا عن معادلات الدرجة الثانية والثالثة. لقد اتبعوا في طرق حلها عمليات مدهشة لا تكاد تصدق لتطابقها مع الطرق العلمية الحديثة. ومما يقال

---

[١] دانيال تي بوتس ،٢٠٠٦،حضارة وادي الرافدين الاسس المادية، ترجمة كاظم سعد الدين ،بغداد ، ص٧٨ .

[٢] كريم عزيز حسن الدليمي ،٢٠٠٤، مصدر سابق ، ص٨٧ .

[٣] احمد سوسه،١٩٦٨،الري والحضارة في تاريخ وادي الرافدين، بغداد، ص١١٢ .

اليوم بوجه عام إن الفضل في تقدم الجبر الحديث يعود إلى البابليين والعرب أكثر مما يعود إلى اليونان .[١]

ومن الأمور المتفق عليها أيضا في تاريخ المعارف البشرية أن البابليين هم الذين أسسوا علم الفلك الرياضي، وبدؤوا يدونون ملاحظاتهم وإرصاداتهم أو حساباتهم الفلكية منذ العهد الأكدي، وتقدم هذا العلم إلى درجة كبيرة مذهلة في العهد البابلي القديم. أما معرفتهم بالعلوم الطبيعية مثل علم الكيمياء، على سبيل المثال وبخاصة ما يتعلق منها بخواص المواد وتأثير الحرارة فيها أو العوامل الطبيعية الأخرى فقد بدأت عندهم في وقت مبكر جدا والتي لا سبيل في هذا الملخص من الدخول في تفاصيلها الدقيقة. [٢]

---

[١] دانيال تي بوتس ،٢٠٠٦،حضارة وادي الرافدين الاسس المادية، ترجمة كاظم سعد الدين ،بغداد ، ص٨٤ .

[٢] جورج رو،١٩٨٦،العراق القديم ، مصدر سابق ، ص٧٨ .

المبحث الثاني

الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر البابلي القديم

لو أن البيانات الوثائقية الوفيرة لوحدها كافية لأن تكون أساساً لكتابة التاريخ الاقتصادي لحضارة نائية وميتة فإن عدد النصوص المسمارية حول جميع مظاهر الحياة الاقتصادية لوادي الرافدين تُمكِّن المؤرخ على إنجاز هذه المهمة بكل تأكيد[١]. فلم تشهد فترات التاريخ، السابقة لازدهار العصور الوسطى الأوروبية، إلا القليل من المدونات للنشاطات الاقتصادية للأفراد ومعاملات المكاتب الإدارية للمعابد والبلاطات، كالتي تُميّز بعض عصور التاريخ البابلي والآشوري. كما أن تتبع نهوض وتطور المؤسسات الاقتصادية على مدى أكثر من ألفي سنة غير ممكنة في أي مكان آخر في العالم، ربما باستثناء الصين والهند.

فعدد الألواح الطينية المتعلقة بهذه الأمور تزداد سنوياً بالآلاف، كما أن عدد المدونات المنشورة وغير المنشورة يقترب من مائة ألف ولا يبدو أن هناك نهاية منظورة لهذه المكتشفات. فمادة الكتابة، بفضل طبيعتها غير القابلة للفناء، وعُرْفُ تسجيل المعاملات الإدارية والخاصة يوفران، مع بعضهما، حصاداً ثرّاً يمكن أن يحلم به أي مؤرخ اقتصادي .[٢]

إزاء ذلك، ما هي أسباب قصور علماء الآشوريات والمؤرخين الاقتصاديين، على حدٍ سواء، للاستفادة القصوى من هذه المصادر؟

هناك، من جهة، العدد الكبير للنصوص المتوفرة الذي لا يستطيع سوى عدد صغير من العلماء لهم الرغبة في التعامل معها وبما يفي بالمراد. لكن العقبة الأكثر أهمية هو الحاجز المفاهيمي الذي يحول دون الإدراك الكامل للطبيعة الحقيقية للمعاملات المدونة وخلفياتها المؤسسية المتعددة الجوانب. [٣] إن استغراقنا في النظريات الاقتصادية للقرن التاسع عشر، التي تؤثر حتى على علماء الآشوريات الأكثر سذاجة في مسائل النظرية

---

[١] كريم عزيز حسن الدليمي ،٢٠٠٤، مصدر سابق ، ص٨٧ .

[٢] دانيال تي بوتس ،٢٠٠٦،حضارة وادي الرافدين الاسس المادية، ترجمة كاظم سعد الدين ،بغداد ، ص٤٥ .

[٣] جورج رو،١٩٨٦،العراق القديم ، مصدر سابق ، ص٨٤ .

الاقتصادية، يؤدي بنا إلى موضعة كل حالة اقتصادية ضمن النسق التقليدي للنقود، والأسواق، والأسعار، وغيرها – كما استقرَّ تعريفها والقبول بها خلال المائة سنة من حضارتنا. فنحن نُطبق هذه الأطر باستمرار حتى بدون إدراكنا بأننا نشوه صورة وادي الرافدين في جوانبها الجوهرية، من خلال تأسيس تحليلنا على مجموعة من الفرضيات التي نقبل بها على أنها كونية التطبيق.

لكن هذا الحاجز، على أي حال، يمكن تجاوزه، ذلك أن بعض دارسي الدين والمؤسسات القانونية لوادي الرافدين قد أدركوا منذ زمن – رغم عدم نجاحهم دائماً في تحقيق هذا الهدف – أن أية محاولة لفهم الظواهر المعقدة، والأجنبية أساساً، لحضارة بائدة يجب أن تُساير المجرى الذي اعتمدته هذه الحضارة في فهم الظواهر. إن الوسيلة الأكثر كفاءة للتوصل إلى هذا الفهم، في التعامل مع حضارة غير أميّة، هي دراسة دلالة بعض الألفاظ المختارة عوضاً عن استخدام المصطلحات الحديثة للتنظيم. ومما لا يمكن إنكاره ان منهج الدراسة المقترح صعب جداً عند التعامل مع لغة ميتة، وأقصى فائدة يمكن للمؤرخ أن يحصل عليها مقيدة بطبيعة النص المحفوظ عرضاً .[١]

إن رد الفعل ضد أنماط التفكير التي ظهرت في القرن التاسع عشر في حقول تاريخ الأديان، وعلم اللغة، وعلم الاجتماع .. الخ، قد علّمنا، احترام الحضارات الأجنبية، وشحّذت ملكاتنا الفكرية في الرصد الذاتي لمواقفنا في هذه الحقول. إلا أن هذا الرصد، مع الأسف، لم يمتد إلى حقل علم الاقتصاد. [٢] فالمناقشات الأبستيمولوجية في هذا الحقل، سواء كانت تقليدية وخلافها، قد خلقت جواً لا يتوفر في ظله فهم لأي نمط اقتصادي سوى النمط الذي نشأ عن التطور الاقتصادي الهائل لأوروبا الغربية منذ القرن الثامن عشر. ونتيجة لهذا الوضع فإن موقف المؤرخين الاقتصاديين، سواء كانت خلفيتهم تتمثل بالمادية التاريخية أو الليبرالية التقليدية، يتصف بمعالجة قاصرة جداً في التعامل مع اقتصادات ما

---

[١] دانيال تي بوتس ،٢٠٠٦،حضارة وادي الرافدين الاسس المادية، ترجمة كاظم سعد الدين ،بغداد ، ص٧٨ .

[٢] كريم عزيز حسن الدليمي ،٢٠٠٤، مصدر سابق ، ص٩٨ .

يسمى بالشعوب البدائية، وكذلك الإهمال الكامل للعناصر الجوهرية لاقتصاد الحضارات القديمة العظيمة .[١]

لقد تم تدشين منهج جديد لهذه المسألة من خلال مشروع الجمع بين فروع المعرفة في جامعة كولومبيا، والذي طبق بنجاح كبير في عدة حقول .[٢]

يوفر لنا هذا المنهج مزيّة أساسية من خلال مجموعة جديدة من المفاهيم يمكن استخدامها لوصف أجزاء كبيرة من البيانات المعقدة والمتنوعة التي يستخلصها عالم الآشوريات من النصوص الاقتصادية. توظف هذه المفاهيم بالدرجة الأولى لأغراض وصفية وتعمل على كشف معالم بنيوية معينة ذات علاقة باقتصاد وادي الرافدين. وهي تزود الباحث بمقولات كافية لتنظيم وعرض جملة من الملاحظات كانت ستكون غير ذي معنى، وأهم هذه المفاهيم هو مفهوم "إعادة التوزيع redistribution." [٣] لا يعني هذا أن فترة ما، أو حقلاً معيناً، مدونة في الوثائق المسمارية يمكن أن يطبق عليها هذا المفهوم كلياً أو حتى بشكل كافٍ، فالواقع أن كامل تطور اقتصاد وادي الرافدين يتميز بتغيرات مستمرة تبرز تارة في التأكيد على شكلٍ من التكامل الاقتصادي، وتارة على شكلٍ آخر دون أن تختفي الأشكال الأخرى تماماً. إن التحري عن العلاقة الدقيقة بين مفهوم "إعادة التوزيع" وغيرها من المفاهيم، كمفهوم "المبادلة" reciprocity [المعاملة بالمثل]، يصبح بالتالي المهمة الأساسية للبحث، وهي مهمة يجب أن تتوسع لتضم دائرة التاريخ الاجتماعي، إ ذ أن هذه الأشكال للتكامل الاقتصادي مستقرة في أعماق النسيج الاجتماعي للبلاد .[٤]

---

[١] طه باقر وفاضل عبد الواحد علي،١٩٨٠،١٩٨٠،تاريخ العراق القديم ،الجزء الأول، بغداد ، ص٧٦ .

[٢]

[٣] صموئيل نوح كريمر ،١٩٨٣،هنا بدا التاريخ –حول الاصالة في تاريخ وادي الرافدين ،ترجمة ناجيه المراني، بغداد ، ص٩٨ .

[٤] هاري ساكز ،١٩٧٩،عظمة بابل ،مصدر سابق. ص٦٥ .

وبالطبع فإن المنهج الجديد سيضاعف من المشاكل بدلاً من تقديم حلول سهلة، ولكن بفضله فإن مسار البحث سيتحول بالضرورة إلى معالجة قضايا جديدة، وقد يرغم عالم الآشوريات على التخلي عن العذر الجاهز بأن نقص البيانات يُعرقل فرص إيجاد الحلول للقضايا المطروحة على البحث. في ظل هذه الظروف يصبح إعادة تقييم وإعادة اختبار البيانات ذات العلاقة بالقضايا الاقتصادية ضرورة ملحة[١]. كما أن هذه العملية يجب أن تطبق ليس فقط على المادة النصية المتعلقة بالموضوع بل تطبق على المدونات التاريخية والدينية والأدبية. ومن الواضح أن مشروعاً كهذا أوسع من أن يستطيع فرد واحد القيام به بشكل وافٍ، وفي ذات الوقت فإنه يتسم بالجدة والصعوبة بما يحول دون النجاح فيه بسهولة. ولهذا السبب فإن الصفحات التالية لا تمثل غير محاولة للإشارة إلى الإمكانيات في التفسير الجديد ولا يُراد منها سوى توضيح المنهج وليس البرهان على فعاليتها .[٢]

سنقوم هنا بإفراد ثلاثة عوامل على أنها ساهمت في تشكيل القاعدة الاجتماعية-الاقتصادية الفريدة لحضارة وادي الرافدين وهي في طريقها للدخول في المرحلة الأدبية literary period. كل عامل من هذه العوامل يتكرر على التوالي في تآلف مختلف في الحضارات الأخرى في الشرق الأدنى القديم. إلا أن خصوصية تجمُع هذه العوامل في بابل الجنوبية لا تظهر في أي مكان آخر .[٣]

هناك، أولاً، زراعة الحبوب القائمة على الري، القادرة على إنتاج محاصيل يمكن التعويل عليها دون الاعتماد على الأمطار، ويمكن التوسع فيها في المكان لإعالة أعداد متزايدة من السكان. مزايا مثل هذا النوع من الزراعة – محصول سهل التخزين، يمكن تقسيمه بدقة لأغراض التوزيع، يعطي أكبر غلّة مقابل الجهد المطلوب في ظل الظروف المناخية والتكنولوجية القائمة[٤] – تتطابق مع العامل الثاني: نمط فريد للاستيطان.

---

[١] كريم عزيز حسن الدليمي ،٢٠٠٤، مصدر سابق ، ص٩٥ .

[٢] جورج رو،١٩٨٦،العراق القديم ، مصدر سابق ، ص٨٨ .

[٣] هاري ساكز ،١٩٧٩،عظمة بابل ،مصدر سابق. ص٧٠ .

[٤] دانيال تي بوتس ،٢٠٠٦،حضارة وادي الرافدين الاسس المادية، ترجمة كاظم سعد الدين ،بغداد ، ص٩٥ .

يختلف هذا الوضع بشكل واضح عن الوضع في مصر حيث يمكن ملاحظة نمط بدائي نسبياً للتكامل الذي يميز الاقتصاد القائم على التخزين، وذلك رغم تشابه الظروف الظاهري بين الوضعين. ويبدو أن الفرق الحاسم يجد تعبيره في طبيعة التحضر urbanisationالذي ظهر في مرحلة مبكرة جداً في وادي الرافدين، وخَلَقَ معه مفهوماً فذاً للمدينة. ففي هذه المدن، ومهما كانت صغيرة، فإن رابطة جمعية قد حلّت محل جميع ولاءات السكان سوى الولاءات للعائلة التي لم يبقَ من أثرها شيء. تجد هذه العلاقة بين الأفراد تعبيرها في الطريقة التي تدير بها المدينة نفسها وتصرفها تجاه مواطنيها، وتجاه المدن الأخرى، وتجاه السلطة المركزية. إن الصفة الفريدة والجوهرية للتمدين في جنوب البلاد البابلية هي حقيقة أن المدينة هنا يمكن أن تتطور إلى مركز للنشاط الثقافي دون تحفيز أو حضور الشروط الاجتماعية الكامنة في السلطة السياسية .[١]

لا يزال التنظيم الاقتصادي الداخلي لهذه المدن مُبهماً، ولكن من المقبول الافتراض بأنه لم يختلف في جوهره عن تنظيم المجتمعات القروية التي نجدها في جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم بضمنها الأقاليم التي كانت تعتمد على الأمطار. مثل هذه القرى، داخل محيط من الحقول في الأراضي المُشاعة قرب المدينة، حيث يجني المزارعون حصادهم مع قلة من الحرفيين اليدويين،[٢] بإمكانها أن توفر لسكانها حياة ملائمة، لا تستوجب إلا القليل من الاحتكاك مع المدن الأخرى، واستعمال هامشي للنقود. ومن الضروري الملاحظة بأن أية مدينة من هذه المدن كانت تتكون من المدينة بالمعنى الضيق (town proper)، أورو(uru) ، ضاحية المدينة(suburb) ، أورو برّه(uru.bar.ra) ، والميناء .(kar) إن غياب موضع السوق marketplace يكشف على نحو دقيق البنية الاقتصادية الداخلية للمدينة تماماً مثلما يكشفها حضور منطقة خاصة خارج المدينة extramural، تُعرف باسم الميناء، لغرض العلاقات الاقتصادية بين المدن. وهنا يدخل العامل الثالث والأكثر حسماً: ففي عدد من مثل هذه المدن كان يوجد نظام اقتصادي ثاني

---

[١] جورج رو،١٩٨٦،العراق القديم ، مصدر سابق ، ص٩٤ .

[٢] صموئيل نوح كريمر ،١٩٨٣،هنا بدا التاريخ –حول الاصالة في تاريخ وادي الرافدين ،ترجمة ناجيه المراني، بغداد ، ص٧٨ .

ومنفصل، يتركز في المعبدsanctuary ، أو لاحقاً – نتيجة لتطور ثانوي – في بلاط الملك. يمثّلُ هذا العامل، بوضوح، نظاماً لإعادة التوزيع يختلف في درجة تعقيده ومداه.[١]

لمثل هذا المركز كان يتم توجيه منتجات، تمثل عمل أفراد يعملون في هرمية معقدة للتنظيم وداخله، للتخزين أو للتحويل إلى أشياء مصنوعة. وكان المركز يستخدم الثروة المخزونة كمصدر للقوة الاجتماعية الاقتصادية، لأغراض الهيبة وكذلك – من خلال قنوات خاصة لإعادة التوزيع – لإسناد تنظيم هرمي ثاني للأفراد يتكون من الكهنة والكتاب والمحاربين والتجار. إن تنظيماً كهذا كان لا بد أن ينمو في حجمه وسلطته ومن أجل توسيع ممتلكاته، بالحصول على دخل من المنتجات الزراعية والعمل في الأراضي العائدة له، واستخدام الدخل الناتج لإعالة أعداد متزايدة من الموظفين وكذلك الإنفاق لأغراض أخرى، اجتماعية أساساً، كتزيين المعابد والقصور. [٢] لقد كانت دورتي الإنتاج والتوزيع المتداخلتين مع بعضهما تُداران من المركز من قبل موظفين بيروقراطيين يستخدمون أنظمة عالية التعقيد في مسك الدفاتر والحسابات. وقد تركوا لنا العديد من المدونات التي تنتظر التقييم. إن عدد هذه التنظيمات قد خلقت انطباعاً بأن هذا النموذج التنظيمي يُمثل كامل التركيبة الاقتصادية لدويلات المدن. وعلى أي حال، فإن استمرار وجود تقليد مديني، تطور من تقاليد المجتمع السومري واحتفظ بحيويته حتى الفترة السلوقية Seleucid [312-64 قبل الميلاد]، يقيم الدليل على أن تعايش النظامين يَسِمُ كامل التاريخ الاجتماعي، وبالتالي الاقتصادي، لبلاد ما بين النهرين. ونظراً لافتقارنا إلى المعلومات فإن العلاقة بين المدينة، من جهة، والمعبد أو البلاط، من جهة أخرى، غير قابلة للوصف إلا أن هناك مؤشرات تدل على أن العلاقة كانت تختلف كثيراً من مدينة إلى أخرى بسبب ظروف خاصة أو تطورات عرضية قد تبقى غير معروفة إلى الأبد .[٣]

---

[١] كريم عزيز حسن الدليمي ،٢٠٠٤، مصدر سابق ، ص٩٧ .

[٢] طه باقر وفاضل عبد الواحد علي،١٩٨٠،١٩٨٠،تاريخ العراق القديم ،الجزء الأول، بغداد ، ص٧٦ .

[٣] جورج رو،١٩٨٦،العراق القديم ، مصدر سابق ، ص٨٥ .

هذا التعايش symbiosis بين مدينة مُنظّمة، على الأقل في أشكالها الأولى، على نمط مجتمع القرية، وبين المعبد أو البلاط، الذي يختلف تماماً في التركيب الاجتماعي والإمكانات الاقتصادية، كان يوفر ترتيباً مُرضياً ومثمراً. فقد شجع على تراكم السلع الرئيسية لدى الأسرة الملكية أو المقدسة، مُجبراً إياها على استنباط طرائق بيروقراطية لإدارة هذا التراكم من خلال جرد المحتويات، ووضع الميزانيات، وتحديد الدخل والإنفاق على مستوى واسع النطاق. وطورَ نظاماً مُحكَماً للمُعادِلات equivalencies للإدارة الكفؤة للأنواع المختلفة من السلع الغذائية، ومواد التصنيع، وتسديد [أجور] الأفراد العاملينٍ بالسلع، .. الخ. أثّرَت هذه الطرائق –[1] وخاصة استعمال المُعادِلات – على جميع اتصالات نظام إعادة التوزيع مع العالم الخارجي، وتطورت إلى وسائل مهمة لممارسة السلطة السياسية الكامنة في مثل هذا الوضع الاقتصادي. الجانب الجوهري في التعايش المذكور يجد تعبيره في مراقبة أسعار السلع الأساسية، ومعدل الفائدة ومعايير الأوزان التي كان البلاط أو المعبد يمارسها أو يحاول ممارستها. والأمر الذي يصعب على الفهم هو استعداد المدينة للإذعان لمثل هذا التعايش وفي ذات الوقت إبقاء الروح المجتمعية حياً خلال تقلبات الحروب والغزوات المتكررة وحتى، أثناء التطور، ممارسة نفوذ سياسي كبير على البلاط والمعبد. وأحياناً كان هذا الروح يزدهر إلى اعتزاز مدني واعي، لا يجد له مثيلاً في المجتمعات الحضرية الأخرى في الشرق الأدنى، ويؤدي إلى تعاظم النشاط التجاري القائم بالدرجة الأولى على المبادرة الفردية، وهي أيضاً مما لم تجد إلا القليل مما يناظرها في المجتمعات الأخرى. إضافة إلى ذلك، فإنه ساهم في ضمان بقاء المدن أثناء فترات السيطرة الأجنبية والانحطاط المستمر لأهمية المعابد. وفي النهاية تحولت العديد من هذه المدن إلى هياكل فارغة حيث كان عدد صغير من السكان يعمل على إبقاء التقاليد الألفية حية، ومع هذا فإن عدداً من المدن استمرت كمراكز مزدهرة ذات شهرة عالمية .[2]

---

[1] هاري ساكز ،١٩٧٩،عظمة بابل ،مصدر سابق. ص٤٦ .

[2] كريم عزيز حسن الدليمي ،٢٠٠٤، مصدر سابق ، ص١٠١ .

ومع ذلك فإن ميزان القوى داخل هذا التعايش كان أبعد ما يكون عن الاستقرار، متحولاً من المَلِك إلى المدينة ومنها إلى الملك، عاكساً التغيرات السياسية التي كانت تلفُّ المنطقة بأكملها، أو كفاءة الحكام. ورغم هذه التغيرات فإن أجواء السلام الاجتماعي تُميّز تاريخ ما بين النهرين وآدابها على عكس ما كان عليه الوضع في مصر .[١]

إن افتقار المنطقة [وادي الرافدين] إلى الأخشاب والأحجار الملائمة للبناء والزخرفة، وكذلك النقص في المعادن، حفّزت نشاطاً اقتصادياً تجاوزَ نطاق نظام إعادة التوزيع. فالبلاطات والمعابد كانت ترغب بهذه المواد لتعزيز هيبتها؛ وأدى هذا إلى التجارة مع البلدان الأجنبية، التي اقتصرت على السلع الكمالية وانحصرت على المستوى الرسمي من خلال السفراء الملوكيين. إن الحاجة لإنتاج سلع لغرض التصدير، سلع سهلة النقل وتجد لها، على الأرجح، سوقاً جاهزة في البلدان التي تنتج أو تتاجر بالمعادن والأحجار وغيرها من المواد المرغوبة، قد خلقت نشاطات صناعية بالاستفادة من المواد الرئيسية المخزونة بكميات كبيرة في البلاطات والمعابد. إن مضامين هذا الجانب في اقتصاد ما بين النهرين أبعد ما تكون عن الوضوح، فتجارة المَلِك كانت قائمة إما على نوع من المبادلة/المعاملة بالمثل reciprocity بين الحكام أو المعاهدات التي تحدد طبيعة السلع وأسعارها .. الخ. وعلى حد سواء يبقى غير واضحاً مكانة الأشخاص الذين يقومون بتحريك تبادل السلع، ومتى وتحت أية ظروف يستطيع المواطنون الأفراد الحلول محل الموظفين الملكيين أو أنهم قد حلّوا محلهم فعلاً، والعديد من القضايا الأخرى ذات العلاقة .[٢]

إن التفاعل بين متغيرين مستقلين، البلاط والمدينة، كان المُقرر لكامل مجرى التاريخ الاقتصادي – والسياسي – لبابل. فالبلاط وسّعَّ قاعدة أعماله من خلال مختلف المراحل الوسطية، كتغيير الاعتماد على دخل الضرائب إلى الجزية/الإتاوة tribute وترتب على زيادة القوة الاقتصادية اللاحقة التأثير على نمط السلوك المفضل للفئة

---

[١] صموئيل نوح كريمر ،١٩٨٣،هنا بدا التاريخ –حول الاصالة في تاريخ وادي الرافدين ،ترجمة ناجيه المراني، بغداد ، ص٧٨ .

[٢] هاري ساكز ،١٩٧٩،عظمة بابل ،مصدر سابق. ص٤٦ .

الحاكمة، وأدى على تغيير في العلاقات ما بين المدن. فالمفهوم الأصلي للدولة–المدينة انزاحَ ليُخلي المكان لمفهوم الدولة الإقليمية territorial state المكونة من العديد من المجتمعات القروية والمستوطنات الجديدة، والمحمية بحصون ملكية، وكلها تزود السلع الرئيسية إلى نظام إعادة التوزيع لدى البلاط. [١] وكان من نتائج النزاعات بين الحكام من أجل الهيمنة تحوّل المدن الجديدة إلى عواصم تزدان بقصور ومعابد فخمة، وبنية سياسية قائمة على اقطاعية مفروضة من فوق. إن الإبقاء على دولة إقليمية في ظل هذه الظروف يتطلب جهداً عسكرياً مستمراً بهيئة جيش ثابت مكون من شريحة من السكان عُزلوا عن مقامهم الاقتصادي والاجتماعي، وحيث أن نظام البلاط، في وظيفته وطموحه السياسي يقع خارج دائرة مجتمع السكان الذي يشكل المدينة، فإن نظام البلاط كان غرضه التأثير الخارجي وكان مُلزماً باستخدام أفراده من بين أناس من أصول إثنية أو خلفيات ثقافية مختلفة. وكان من المرجح أن يقوم هؤلاء الأفراد بدورهم بالاستيلاء على السلطة واستخدام مواطني بلدانهم المحاربين لإبقائهم في مركز نظام إعادة التوزيع. وأدت الغزوات الأجنبية المتكررة إلى التمزق الفيودالي وإزاحة الحكومة المركزية، كما أن الصراع الحتمي بين المدن القديمة، وتقاليدها الثقافية والمدنية، والحكام الجدد أدى إلى تأسيس عواصم جديدة أشبه ما تكون بمخيمات عسكرية .[٢]

التطور الذي أتينا على ذكره أعلاه، على أنه تطور نموذجي، لم يتحقق على الإطلاق في جميع مراحله في أي من الدول التي كانت تتنافس فيما بينها في المنطقة الجنوبية من وادي الرافدين منذ زمن ظهور امبراطورية سرجون الأكدي [الألف الثالث قبل الميلاد]. إن بعضاً من التطورات غير النموذجية التي حصلت بسبب النجاحات الباهرة لبعض الحكام، أو كنتيجة لغزو أجنبي، قد ساهمت في تمويه النمط ولكن دون أن

---

[١] هاري ساكز ،١٩٧٩،عظمة بابل ،مصدر سابق. ص٤٦ .

[٢] صموئيل نوح كريمر ،١٩٨٣،هنا بدا التاريخ –حول الاصالة في تاريخ وادي الرافدين ،ترجمة ناجيه المراني، بغداد ، ص٧٨ .

تنجح في إقصاء المجموعة الرائعة والمتكررة للأحداث التاريخية التي تنتظم النمط الذي عرضناه أعلاه .[١]

إن ظهور بعض المدن الكبيرة في بابل بحيوية متجددة وقوة اقتصادية حوالي النصف الأول من الألفية الأولى قبل الميلاد، بعد انقضاء فترة طويلة شهدت انحطاط السلطة الملكية، ينطوي على أحد أهم الألغاز المُحيرة في التاريخ الاقتصادي البابلي. القرون القليلة التي تفصل السلالات الحاكمة ما بعد الكيشيين [١٥٣١-١١٥٥ قبل الميلاد]، والتي لم تعمر طويلاً، عن غزو الفرس، الذين وجدوا في بابل المرزبانية [وحدة عسكرية-إدارية/ولاية فارسية satrapy [الأغنى، قد شهدت نهوضاً اقتصادياً لم يكن، في ضوء الأوضاع الاقتصادية والإمكانيات في كامل المنطقة، إلا النتيجة المباشرة للتجارة العالمية، وفي هذه الحالة بمناورة إما من المدن، من خلال نشاط تنظيمات تجارية، أو، وهو الأقل احتمالاً، من خلال أفراد أو البلاط نفسه. وكون أن التجارة مع الشرق يبدأ حوالي هذه الفترة، بعد توقف لما يقرب من خمسمائة سنة، يؤيد هذا التفسير، لا ينبغي أن نرتاب بصحة هذا التفسير على أساس عدم توفر أدلة مكتوبة ذات صلة. ورغم أن النصوص التي توثق المعاملات التجارية الفردية وشؤون بعض الأماكن المقدسة sanctuariesالكبيرة متكررة إلى حد بعيد في هذه الفترة، على المرء أن يفترض ان كتابة السجلات في العصر البابلي الجديد [٦٢٦-٥٣٩ قبل الميلاد] [٢] لم يكن عُرفاً متبعاً إلى حد كبير في مجال التجارة الخارجية. ويبدو أنه ينبغي لنا أن نُفرق بين نوعين من الممارسات في حقل النشاط التجاري الواسع النطاق في الشرق الأدنى القديم. أولهما، الممارسات التي كانت تقوم بها المستوطنات التجارية الآشورية في آسيا الوسطى وموردي النحاس من الخارج إلى أور بابل-القديمة، وكانت هذه بكل وضوح تحت تأثير التقنيات البيروقراطية لإدارات المعابد السومرية التي كانت تتميز بتعقيدات مسك الدفاتر والمحاسبة المتعددة الجوانب. ويبدو أن ثانيهما كانت تُفضل الاتفاقات الشفوية ومُستكْمَلة بأدوات تنفيذية مختلفة كان تجار الشرق الأدنى، من الفينيقيين إلى النبطيين، يعتمدون

---

[١] كريم عزيز حسن الدليمي ،٢٠٠٤، مصدر سابق ، ص١٠٤ .

[٢] طه باقر وفاضل عبد الواحد علي،١٩٨٠،١٩٨٠،تاريخ العراق القديم ،الجزء الأول، بغداد ، ص٦٤ .

عليها بشكل أساسي. والتزم بالممارسة الثانية سكان بابل الذين منحهم أسرحدون [٦٨٠-٦٦٨ قبل الميلاد]، كدليل عملي على رجوعهم إلى السلطة، حق المتاجرة مع جميع أقاليم العالم، بعد أن قام أبيه سنحاريب بتدمير المدينة وبيعهم كرقيق .[١]

يكشف هذا، بالمناسبة، معلومتين مهمتين إلى حد ما: كان أهالي بابل يعملون في التجارة بعيدة المدى والتي أصبح مصدر ثرائهم وقوتهم، وكان الملوك الآشوريون يتساهلون مع مثل هذا النشاط، وعلى الأرجح كانوا يستفيدون منها. واهتمامهم بمثل هذه التجارة بين البلدان، علاوة على ذلك، مدون في فقرة في نقش تاريخي لسرجون الثاني (جد أسرحدون). ففي هذا النص المنشور مؤخراً نجد بياناً يعكس بوضوح لافت للنظر الدور الأساسي الذي كانت تشغله التجارة في مالية الإمبراطورية الآشورية. يدرج سرجون في هذا البيان من بين انجازاته العسكرية حقيقة أنه كان الملك الأول الذي أجبر مصر – التي يبدو أنه هاجمها خلال حملته الفلسطينية – لإقامة علاقات تجارية مع آشور. أن توصف الحدود المصرية هنا بأنها "مغلقة" توضح وجهات النظر المختلفة جوهرياً للخصمين تجاه التجارة. فالاكتفاء الذاتي لاقتصاد التخزين الأحادي لمصر اصطدم مع مصلحة وادي الرافدين في التجارة العالمية التي كانت التعبير المباشر عن اتحاد فريد بين النظامين الاقتصاديين الذين لاحظناهما في بابل .[٢]

يقودنا هذا إلى مسألة مهمة في علم الآشوريات: فهْم وتقييم طبيعة الشكل الآشوري لحضارة وادي الرافدين .[٣]

في الهلال الواسع للأراضي التي تحيط جنوب بلاد ما بين النهرين شمالاً وغرباً كانت الزراعة تعتمد حصراً على مياه الأمطار. سقوط الأمطار ضَمَنَ، كقاعدة عامة، معيش المجتمعات الصغيرة المتناثرة في السفوح الجبلية ووديان زاجروس وفي جميع أنحاء أعالي ما بين النهرين بضمنها المناطق الساحلية للبحر الأبيض المتوسط .. الخ.

---

[١] صموئيل نوح كريمر ،١٩٨٣،هنا بدا التاريخ –حول الاصالة في تاريخ وادي الرافدين ،ترجمة ناجيه المراني، بغداد ، ص٧٨ .

[٢] هاري ساكز ،١٩٧٩،عظمة بابل ،مصدر سابق. ص٧٠ .

[٣] كريم عزيز حسن الدليمي ،٢٠٠٤، مصدر سابق ، ص٩٥ .

المدن داخل هذا الهلال كانت تحتاج إلى مُحفّز خاص كي تنمو، كمعبد ومقام للسلطة الحاكمة أو خطوط للتجارة، والتي كانت نادرة الوجود. كانت القرى تضم عدداً من العائلات المُعتمِدة على نفسها في زراعة الحقول والبساتين القريبة منها، وتدفع الضرائب بشكل جماعي إما إلى حاكم يقيم في قصر منيع أو إلى مالك غائب له قرابة، بحكم الولادة أو المكانة الفيودالية، مع سلطة مركزية من نوعٍ ما. الوحدات القروية ذاتها، أو الإيرادات المستمدة منها، كانت خاضعة للتفاوض مع بعض التقييدات التي كانت تختلف حسب الوقت والمنطقة. وبذلك فإنها صارت القاعدة الاقتصادية لتنظيم فيودالي يرتبط بشكل مؤقت مع من كان يمسك بزمام السلطة. وبفضل المساهمة بالضرائب كان النظام بأكمله يوفر سنداً لمجموعات القوة المفروضة. هذه المجموعات، كقاعدة عامة، أظهرت القليل من الاستقرار، وتوسعت بسرعة بقيادة أحد الأفراد، تمَّ التغلب عليها بيُسر من قبل مجموعات أجنبية غازية، وانهارت بسهولة عندما اختفت قدرة التنظيم المركزي على جباية الضرائب. وظلَّ مجتمع القرية مستقراً على نحو بارز، وعملَ واجب تسديد الضرائب الجماعي على تحييد الانشقاقات الفردية رغم أن الحرفيين غالباً ما كانوا ينجذبون نحو بلاط الملك، وهكذا كانوا يساهمون بذلك النوع من التصنيع الذي كان جميع ملوك المنطقة يسعون إليه لتعزيز قاعدتهم الاقتصادية .[١]

من آشور، المدينة التي يبدو أنها تمثل الأُس في أقصى الشمال لتنظيم نموذج المدينة البابلية، قامت السلالات الحاكمة، المحلية والأجنبية، ببناء سلسلة من الإمبراطوريات ذات البنية الاجتماعية–الاقتصادية التي وصفناها آنفاً[٢]، والتي لم تُعمّر طويلاً. لكن هذه الإمبراطوريات كانت تتزود بصورة متزايدة دائماً من المغانم المُجمَّعة من حملات حربية سنوية ذات طابع مؤسسي، كما يبدو، ومن إيرادات مشاريع الاستيطان الداخلية والتجارة العالمية بعيدة المدى. ونشأت مشاريع الاستيطان الداخلي من مبادرات ملكية، فالملوك الآشوريين كانوا باستمرار يقومون بتشييد المدن الجديدة وتأهيلها بسجناء الحرب. وكانت هذه المدن تُحكم من قبل موظفين ملكيين يدفعون الضرائب للملك. كل

---

[١] طه باقر وفاضل عبد الواحد علي،١٩٨٠،١٩٨٠،تاريخ العراق القديم ،الجزء الأول، بغداد ، ص٦٨ .

[٢] هاري ساكز ،١٩٧٩،عظمة بابل ،مصدر سابق. ص٧٨ .

هذا وكذلك بناء منظومة من الطرقات لأغراض حفظ الأمن وجباية الضرائب والإتاوات عملت على دعم العائلة المالكة وجيش الملك .[١]

وينبغي أن نوضح في هذا السياق أن السلطة السياسية الآشورية كانت تقوم أساساً على سياسة policy التحضُّر بالقوة، المفروضة على على تلك الأقاليم التي كانت خارج المنطقة الصغيرة نسبياً للتحضر الذاتي الحقيقي في الجنوب والتي تشكل "قلب" الحضارة البابلية. وقد تمَّ تطبيق بعض التحضر بالقوة كذلك من قبل بعض الشخصيات النشطة والناجحة عسكرياً وسط الملوك البابليين. ويمكن القول إن التنفيذ الواعي القاسي للمفهوم السياسي للتحضر الإجباري هو الذي خلق الإمبراطورية الآشورية. وقد طبقت ذات السياسة فيما بعد من قبل كل الغزاة الفرس والساسانيين الذين سيطروا على نفس المناطق في الشرق الأدنى .[٢]

ويبدو أن السياسة الداخلية في آشور كانت معقدة جداً. المدن القديمة المحمية بمواثيق ازدهرت بفضل استثنائها من الضريبة والتجنيد العسكري؛ وربما كان لها حصة في النشاط التجاري إلا أن هذا غير قابل للتوثيق في العهود المتأخرة. وقد أمْلَت المصالح المختلفة النشاطات المتعلقة بنظام التوزيع المتمركز في البلاط، الذي كان يحتاج إلى الغنائم والخامة البشرية الواردة من الحملات التي لا تنتهي لدعم وتوسيع الأسرة الملكية، بينما بَسَطَ التنظيم الفيودالي، مع انظمته لإعادة التوزيع، الثاني والثالث، نفوذه من الضيعات الاقطاعية والمجتمعات القروية إلى مسؤولي البلاط. كل هذه القوى كانت تتنافس من أجل النفوذ السياسي لزيادة قوتها، وهذا ما يجعل التاريخ الآشوري حقلاً صعباً، وفي نفس الوقت، حقلاً رائعاً للبحث .[٣]

---

[١] صموئيل نوح كريمر ،١٩٨٣،هنا بدا التاريخ –حول الاصالة في تاريخ وادي الرافدين ،ترجمة ناجيه المراني، بغداد ، ص٧٨ .

[٢]راجحة خضير عباس النعيمي ،١٩٧٦،الاعياد في حضارة وادي الرافدين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ص٤٥ .

[٣] صموئيل نوح كريمر ،١٩٨٣،هنا بدا التاريخ –حول الاصالة في تاريخ وادي الرافدين ،ترجمة ناجيه المراني، بغداد ، ص٧٨ .

من خلال فرز انماط أساسية معينة للتكامل الاقتصادي في هذا التبسيط المفرط، المتهور نوعما، لثلاثة آلاف سنة من التاريخ الاقتصادي لم نقصد إهمال التأثيرات الإيديولوجية المتداخلة الموجودة في كل مكان، أو إهمال حقيقة أن الظروف المحلية وتلك ذات الطابع المؤقت قد ضغطت باستمرار لخلخلة هذه الأنماط. ومع ذلك، هناك اتجاه مؤكد ضمن تطور المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية لوادي الرافدين للعودة إلى عدد صغير نسبياً من التكوينات النموذجية لأوضاع سياسية واقتصادية أياً كانت العوامل المربكة المتحركة عبر المشهد التاريخي. هذه القدرة الغريبة لعكس مسار التطور تفسر إلى حد كبير بعض المظاهر الفريدة للصورة التي رسمنا ملامحها في هذه "النظرة العامة" للتاريخ الاقتصادي لوادي الرافدين. [1]

[1] طه باقر وفاضل عبد الواحد علي، ١٩٨٠،١٩٨٠،تاريخ العراق القديم ،الجزء الأول، بغداد ، ص٧٧ .

الخاتمة

بلاد بابل أو البابلية أو بابل تعني بالأكّدية (بوابة الإله) كان الفرس يطلقون عليها بابروش دولة بلاد ما بين النهرين القديمة. كانت تعرف قديما ببلاد سومر وبلاد سومر كانت تقع بين نهري دجلة والفرات جنوب بغداد بالعراق. فظهرت الحضارة البابلية ما بين القرنين ١٨ق.م. و٦ ق.م. مركز هذا الإقليم هو مدينة بابل والتي مرّ عليها خلال فترات وجودها العديد من الشعوب والحكام. وكانت تقوم على الزراعة وليس الصناعة. وبابل دولة أسسها حمورابي عام ١٧٦٣ق.م. وهزم آشور عام ١٧٦٠ ق.م، وأصدر قانونه (شريعة حمورابي) وفي عام ١٦٠٣ق.م. استولى ملك الحيثيين مارسيليس علي بابل واستولى الآشوريون عليها عام ١٢٤٠ ق.م. بمعاونة العلاميين.

وتطلبت الزارعة في البابلية، عملاً مضنياً وتنظيماً دقيقاً، ولكنها كانت تثمر غلالاً وفرة، فمن الضروري شق القنوات لإيصال المياه إلى الحقول، وكانت أعمال القنوات الرئيسة مسؤولية الدولة. أما المزارعون فيتولون القنوات الصغيرة الثانوية والعناية بها. المألوف أن تبذر المحاصيل في أواخر الخريف وتحصد في نهاية الربيع. وكانت الغلال تحصد بالمناجل. ويبدو أن البابليين كانوا يستخدمون النورج للدراس، ثم يقومون بعملية التذرية، وبعدها بتخزين المحصول في أهراء قريبة من الحقول. أما المحاصيل فكانت من القمح والشعير، والعدس، والحمص، والكتان، والسمسم، والبازلياء والشوفان والدّخْن والجلّبان.

المصادر

١. احمد سوسه،١٩٦٨،الري والحضارة في تاريخ وادي الرافدين، بغداد.

٢. اندري باور ،١٩٧،سومر فنونها وحضارتها ، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، بغداد.

٣. جورج رو،١٩٨٦،العراق القديم ، ترجمة حسين علوان حسين، بغداد،

٤. دانيال تي بوتس ،٢٠٠٦،حضارة وادي الرافدين الاسس المادية، ترجمة كاظم سعد الدين ،بغداد .

٥. راجحة خضير عباس النعيمي ،١٩٧٦،الاعياد في حضارة وادي الرافدين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد.

٦. صموئيل نوح كريمر ،١٩٧٣،السومريون تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة فيصل الوائلي ،الكويت.

٧. صموئيل نوح كريمر ،١٩٨٠٣،هنا بدا التاريخ –حول الاصالة في تاريخ وادي الرافدين ،ترجمة ناجيه المراني، بغداد.

٨. طه باقر وفاضل عبد الواحد علي،١٩٨٠،١٩٨،تاريخ العراق القديم ،الجزء الأول، بغداد.

٩. كريم عزيز حسن الدليمي ،٢٠٠٤، الزراعة في العراق القديم منذ عصر فجر السلالات حتى نهاية العصر البابلي القديم ٣٠٠٠–١٥٩٥ ق.م، اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب جامعة بغداد.

١٠.هاري ساكز ،١٩٧٩،عظمة بابل ،ترجمة عامر سليمان ،الموصل.